الحدث

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

لبنان وجبهات إسرائيل السبع
"سمّ" في رؤية شرق أوسط جديد

ليست صدفة تلك التي يقول فيها بنيامين نتنياهو انه يعمل على "تغيير وجه الشرق الاوسط"، فيما كان يوسع عدوانه على لبنان وفلسطين وسوريا، مكررا ما فعلته وزير الخارجية الاميركية السابقة كوندوليزا رايس في عز العدوان الاسرائيلي على لبنان عام 2006، بأن لا حاجة الى وقف الحرب طالما تتم اقامة الشرق الاوسط الجديد

مفجع ان تكون محاولة رسم صورة جديدة للشرق الاوسط، اقله مثلما اشارت اليه رايس ويقول نتنياهو الان انه يحققه، تجري في ظل حمامات دم وجرائم ابادة، وهو طريق لا يعالج بالتأكيد قضايا المنطقة، وخصوصا مركزية فلسطين فيها، وانما يمعن في محاولة تخطي حقائق التاريخ والجغرافيا وحقوق الشعوب، والانكى انه يتم باسم نشر السلام.

لم يخجل نتنياهو وهو يقف على منبر الامم المتحدة رافعا خارطتين للمنطقة، الاولى تحت اسم "النعمة" وهي باللون الاخضر والتي تضم الى جانب الكيان الاسرائيلي دولا عربية، واخرى باللون الاسود تحت عنوان "اللعنة" وتضم دولا عربية اخرى، بينها لبنان، الى جانب ايران، والتي يبدو ان رئيس الوزراء الاسرائيلي يحاول تصوير نفسه على انه الفارس الذي يسعى الى تعميم الاولى، ومحاربة الثانية، من خلال معاركه الحالية.

في اعلانه في 26 تشرين الثاني الماضي حول موافقته على وقف اطلاق النار مع لبنان، قال نتيناهو مجددا ان "اسرائيل غيرت وجه الشرق الاوسط"، معتبرا ان اسرائيل حققت انجازات على سبع جبهات.

فكرة الشرق الاوسط الجديد ليست من بنات افكار نتنياهو. كما ان القضية اكثر خطورة من خارطة ملونة. عندما كانت رايس في 25 تموز 2006 تقول بعد اجتماعها مع رئيس الوزراء الاسرائيلي وقتها ايهود اولمرت ان حرب اسرائيل ضد لبنان وحزب الله هي حرب يمكن ان تعيد تشكيل الشرق الاوسط، وبالتالي ليس من الملح التوصل الى وقف لاطلاق النار، وان "الوقت قد حان لنقول لأولئك الذين لا يريدون شرق اوسطا مختلفا اننا سننتصر"، كانت الوزيرة الاميركية تحاول بذلك تطبيق رؤية رئيسها جورج بوش.

في شباط العام 2004، عبر بوش، بعد اقل من عام على غزو العراق وتدمير مجتمعه، عن رؤيته للشرق الاوسط الكبير بمبادرة طرحها على "مجموعة الـ8"، تتضمن تحذيرا من اقتراب الشرق الاوسط من الانفجار بسبب التدهور الاقتصادي والاستبداد السياسي، وخطورة ذلك على الغرب ومصالحه، مقترحا العمل على تعزيز الديموقراطية والحكم الصالح وتوسيع الفرص الاقتصادية.

وكان بوش بذلك يرى ان هذا التغيير اهدافه تتمحور حول اعادة تشكيل وترتيب اوضاع المنطقة لتكون اقرب الى الانظمة والافكار الليبرالية؛ وترسيخ العولمة من خلال تغلغل الشركات الاميركية والاوروبية ومصالحها؛ وتعزيز مسار التطبيع بين العرب واسرائيل.

صحيح ان حرب اولمرت في تموز 2006 على لبنان لم تحقق اهدافها المعلنة اسرائيليا، لكن الكثير مما جرى في منطقة الشرق الاوسط الاوسع منذ ذلك الوقت، يظهر محاولات مستمرة لإنجازها، تارة عبر التدخل الاميركي - الغربي المباشر، وتارة عبر تأليب المجتمعات الداخلية (الربيع العربي) ضد انظمة حاكمة، وتارة اخرى عبر التدخل المباشر من جانب اسرائيل، باعتبارها القاعدة العسكرية - الامنية المتقدمة في المنطقة لضمان مصالح الغرب، مثلما يجري حاليا حيث امتدت العضلات الاسرائيلية لتدمير غزة، وابتلاع الضفة الغربية، وضرب مقدرات لبنان، والامعان في اضعاف سوريا (تحذير نتنياهو للرئيس السوري بشار الاسد وهو يعلن عن وقف اطلاق النار الموقت مع لبنان في 26 تشرين الثاني)، والاعتداء على العراق وايران، وصولا الى اليمن.

لهذا، فان من المهم تحديد ما تتصوره اسرائيل من هذا الشرق الاوسط الجديد، او الكبير، من اهداف سياسية وعسكرية واقتصادية، بما يشمل لبنان، والتي يمكن اختصارها بالعناوين الكبيرة التالية بحسب ما يظهره السلوك الاسرائيلي والمواقف الاسرائيلية المعلنة خلال العقدين الماضيين على الاقل:

- القضاء على فكرة "الدولة الفلسطينية" بالكامل. تدمير غزة، والضغط على الضفة الغربية بالاستيطان وتسهيل اعتداءات الجيش وعصابات المستوطنين على قرى ومدن الضفة، يخدم هذه الفكرة.
- القضاء على حركات المقاومة الفلسطينية، وخصوصا حركتي حماس والجهاد الاسلامي، واضعاف اي سلطة تمثيلية للفلسطينيين بما في ذلك السلطة الفلسطينية في رام الله.
- تطبيع العلاقات مع المزيد من الدول العربية بما يسوق للسردية الاسرائيلية بان تل ابيب تسعى الى السلام والعيش بوئام مع "جيرانها"، وينزع مشروعية مقاومتها في المنطقة.
- "شيطنة" نفوذ ايران في المنطقة، وتطويقها ببؤر التوتر والدول المتوجسة منها، وضرب القوى الحليفة لها، والضغط على واشنطن للسير الى جانبها على هذا الطريق، واستمالة دول عربية للتحالف معها بهذا النهج.
- ضمان التفوق العسكري الاسرائيلي في المنطقة، وتقوية "الردع"، بما يجعل تحدي ارادتها اقليميا صعبا، ويعزز صورتها كحليف وفي للمصالح الاميركية والغربية.
- تغيير الوقائع الحدودية والديموغرافية المحيطة بها، بما يسهل لاسرائيل تمكين سيطرتها، وهو ما يستدل عليه من خلال تدمير غزة بشكل متعمد، لجعلها مكانا مستحيلا للبقاء، وانجاح فكرة تهجير اهلها، وايضا من خلال الاعتداءات المتصاعدة في سوريا لتعزيز ضعف الدولة وسيادتها على اراضيها ومناطقها، اضافة الى ما تحاول القيام عند اقصى الحدود الجنوبية للبنان، سواء بمحو القرى الملاصقة للحدود، او بمنع اهالي هذه المنطقة من العودة الامنة اليها.

ما قبل روزفلت

الاهتمام الاميركي بمنطقة الشرق الاوسط منذ اواخر القرن التاسع عشر، ثم تعزز فيما بعد الحرب العالمية الاولى مع تزايد اكتشاف موارد النفط في ثلاثينات القرن العشرين، ثم ارتقت الى مرحلة جديدة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.
كانت اول زيارة رسمية يقوم بها رئيس اميركي الى المنطقة في 22 تشرين الثاني العام 1943، حين زار الرئيس فرانكلين روزفلت مصر، وحضر مؤتمر القاهرة الاول لدول الحلفاء.

رهما في هذه النقطة الاخيرة المتعلقة بتغيير الوقائع الحدودية المحيطة بإسرائيل، ما يفسر طبيعة الشروط والبنود التي حاولت اسرائيل، وبضوء اخضر اميركي، فرضها على لبنان خلال المفاوضات في مرحلتها الاولى بعد بدء توسيع العدوان البري والجوي قبل نحو شهرين، حيث تضمنت افكارا، لا مبرر لها سوى محاولة استغلال الضغط العسكري على اللبنانيين، من اجل الانتقاص من سيادتهم على ارضهم واجوائهم بشكل كامل.

وقد تبين من المسودات الاولى لاقتراحات وقف اطلاق النار التي حملها الوسطاء الى بيروت، انها تتضمن افكارا على شاكلة منح اسرائيل "الحق" في التدخل لضرب او استهداف اي خطر قد تراه مستقبلا في داخل الاراضي اللبنانية، وفي بعض الحالات من دون انذار مسبق، او الرجوع الى "لجنة الاشراف" المقترحة لمتابعة تطبيق القرار 1701. لكن هذا البند واجه اعتراضات لبنانية قوية من الرئيس نبيه بري ومن رئيس الحكومة نجيب ميقاتي وبعد الملاحظات التي قدمها حزب الله على الوثيقة، واستعيض عنه ببند يتعلق بحق الطرفين بالدفاع عن النفس. وللتعويض عن ذلك، فقد اكد المسؤولون الاسرائيليون مرارا وجود ضمانة اميركية (من خارج وثيقة وقف اطلاق النار) تؤكد فيها واشنطن على حق اسرائيل في حرية العمل العسكري طالما تعرضت لخطر، وهو "حق" اكد عليه ايضا الرئيس جو بايدن وهو يعلن "هدنة" لبنان.

لا حاجة الى القول ان تمرير بند كهذا في الاتفاق المقترح مع لبنان، كان سيضع البلاد تحت رحمة ومزاج رئيس حكومة اسرائيل، سواء الحالي نتنياهو، او اي من سيخلفه، اضافة الى ان ذلك سيساهم فعليا في تقويض روحية القرار 1701، لصالح اليات عمل موازية، قد تجد فيها اسرائيل مساحة اكبر للعمل ضد لبنان وسيادته.

لهذا، لم يكن غريبا ان المسؤولين الاسرائيليين راحوا يجرون قراءات خاصة بهم لاتفاق وقف اطلاق النار، وبما يخدم رؤيتهم ليس للوضع في لبنان فحسب، وانما لمنطقة الشرق الاوسط الاوسع. فمثلا، نقلت "القناة 13" الاسرائيلية عن مسؤول اسرائيلي امني كبير انه لن يكون هناك وضع حيث لن يكون هناك اي تحرك او رد فعل اسرائيلي على اي عمل يقوم به حزب الله في لبنان، وان طموح اسرائيل هو ان يمنع الجيش اللبناني، تحت الاشراف الاميركي، حزب الله من النزول مرة اخرى الى الحدود الشمالية، مضيفا انه ما من احد في اسرائيل يثق بالجيش اللبناني، ولن تثق اسرائيل الى بنفسها في اليوم التالي للحرب. واشار التقرير الى ان الجيش الاسرائيلي سينسحب خلال فترة 60 يوما من اعلان وقف اطلاق النار، بشكل تدريجي ومنسق من الاراضي اللبنانية، لكنه سيحتفظ بـ"الحق" في مهاجمة اي تهديد فوري.

تحاول اسرائيل من خلال تأويلات وتفسيرات مخادعة كهذه، اضافة الى تصعيد عدوانها على لبنان، بما في ذلك استهداف المدنيين بشكل مباشر دون حرمة قانونية، بعدما وصل عدد الضحايا من شهداء وجرحى، الى نحو 20 الف شخص، وتدمير قرى بأكملها، تحقيق "رؤيتها" الخاصة بالشرق الاوسط الجديد، من خلال تغيير قواعد الاشتباك لا مع لبنان وحده، وانما ايضا مع سوريا وايران (مع محاولة تطبيقها ايضا في العراق واليمن)، وتموضعها الاقليمي.

لهذا، فان نتنياهو عندما صعد غزوه الموسع في الشمال ضد لبنان، ويقول انه يريد تغيير الوضع الاستراتيجي في المنطقة، يعتقد انه يعيد رسم خريطة المنطقة بما يتلاءم مع مصالحه، اي التأكيد على هيمنة اسرائيل وتبديد صورة ◄

◄ انتكاستها في يوم "طوفان الاقصى"، واستعادة مكانتها كقوة اقليمية متفوقة على محيطها، ولو تطلب ذلك حمامات دم في المنطقة، والدخول في مرحلة جديدة من "الاتفاقات الابراهيمية" مع مجيء عهد ترامب، من باب القوة والبطش، لا من باب الشراكة والمساواة مع شعوب ودول محيطها العربي والاقليمي.

نجد ان المنطقة تتخبط بمنة ويسرة، ما بين

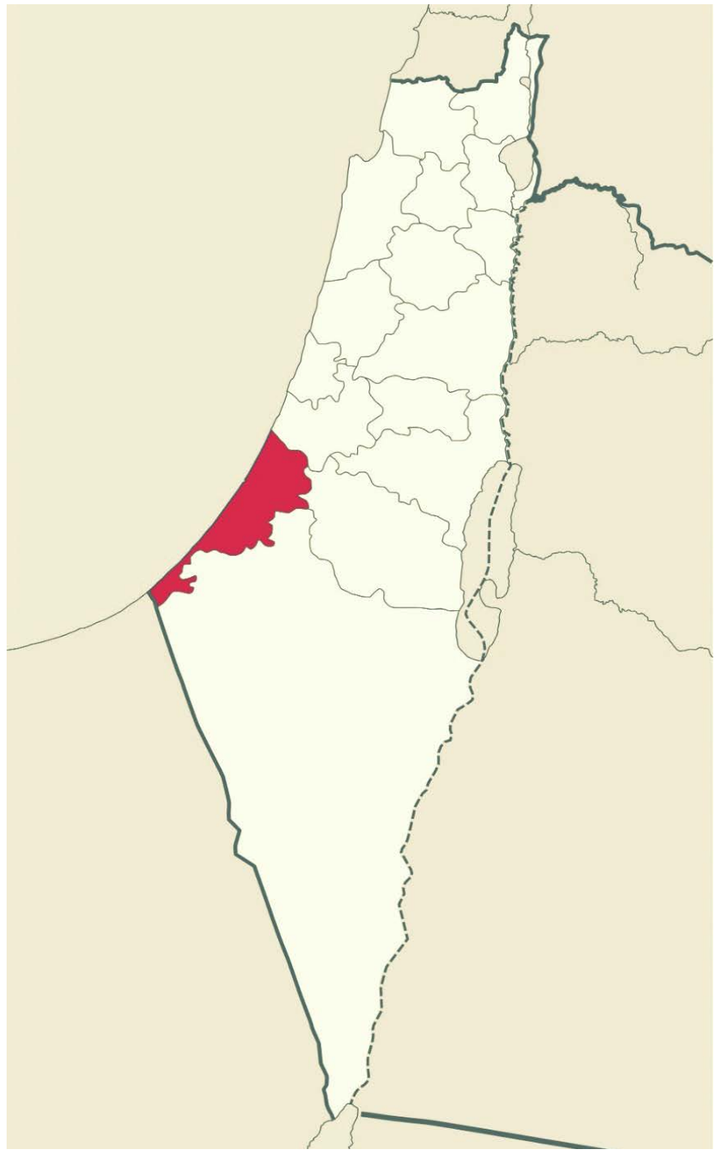

شعارات وتقسيمات، على غرار تارة "محور الشر"، ومحور الاعتدال" وتارة اخرى بشعار "المحور الشيعي"، وتارة اخرى بـ "محور الارهاب"، وتارة يتم ادخال السنة فيه، وتارة الشيعة، وتارة يتم استهداف المسيحيين في العراق وسوريا تحت لواء "الدواعش" والتكفير، وصولا الى الفوضى والتفكك والتجويع وضرب بنى الدول وانظمتها.

الرئيس الاسرائيلي الاسبق شمعون بيريز سبق انه ان اصدر كتاب "الشرق الاوسط الجديد" في العام 1993، والذي روج فيه للفكرة، من خلال تصوير منطقة يعمها الرخاء والعلاقات الاقتصادية المزدهرة من خلال التعاون بين اسرائيل و"جيرانها" العرب، حيث يقول انه "يتعين علينا اولا - وقبل كل شيء - ان نعترف بعقم الحرب؛ فالعرب لا يستطيعون هزيمة (اسرائيل) في ارض المعركة، و(اسرائيل) لا تستطيع املاء شروط السلام على العرب". لكن في اطار دس السم في العسل، دعا في الكتاب الى عدم التوقف عن قضايا غير جوهرية كما سماها، مثل الدولة الفلسطينية حيث يمكن ان تضم الاراضي التي تسكنها الكتلة الكبرى من الفلسطينيين الى الاردن مع ضمان حرية التنقل بين بلدان المنطقة، ما يفقد الحدود اهميتها، ومع تمتع السكان بامتيازات متساوية .

هذه هي المعادلة اذن. تعايش وسلام مع العرب في مقابل الغاء فكرة الدولة الفلسطينية على ارض الفلسطينيين التاريخية لإبقائها بقبضة الاسرائيليين، اذ يقول بوضوح "ليس امام الاردنيين والفلسطينيين من خيار سوى التعايش المشترك".

هذا جزء من مشهد "الشرق الاوسط الجديد" الذي تأمل فيه اسرائيل، وعدوانها على لبنان لم يكن لا دفاعا عن النفس ولا من اجل اعادة مستوطنيها الى الشمال. الفكرة دائما اكثر اتساعا من ذلك. ولم يكن مقتل "المؤرخ" الصهيوني زئيف إيرليخ في مقام النبي شمعون في قرية شمع في الجنوب اللبناني، حادثة عادية من احداث الحرب، فهذا الرجل عرف بانه من اكبر المزورين والمروجين لأفكار "يهودية" الارض الفلسطينية، لتغيير هوية البلاد الاصلية، وجزء من رؤيته ان ما يسمى "ارض الميعاد" التي يتحتم عليه تزوير التاريخ والاثار من اجلها، تتضمن اجزاء واسعة من اراضي لبنان وسوريا والاردن ومصر والعراق والسعودية.